

القصة القرآنية وإعجازها العلمي

سورة يوسف . أنموذجاً .

الأستاذ: سيدي محمد بن كعبة

أستاذ مساعد أ

قسم اللغة العربية وآدابها

جامعة البليدة 2

الملخص:

تعدّ قصة سيدنا يوسف II أحسن القصص القرآني، فهي تتفرد عن باقي القصص القرآني بأنها جاءت في سورة واحدة ولم تتكرر في أيّ موضع آخر، كما أنها عالجت مسألة سلوكية وليست عقدية كأغلب القصص القرآني الآخر كما حملت في طياتها الكثير من الجوانب الطبية والقضائية والنفسية والاجتماعية واللغوية والتربوية، يستطيع المرء أن يستفيد منها في جميع مناحي الحياة، ما يجعلها حقيقة أحسن القصص القرآني، لا يمل المرء من تكرار سماع قراءتها والاستفادة منها.

الكلمات المفتاحية: سورة يوسف، الجوانب التربوية، البناء الدرامي لقصة يوسف، بنية قصة يوسف.

Abstract :

The story of the prophet Youcef peace be upon him is regarded as the best koranic story since a whole Surah

in the holy book has been devoted to it, it has not been repeated in any other context, it tackled a behavioral issue and not a religious one as it is the case for the majority of the Koranic stories. Furthermore, the story of the prophet Youcef implied many medical, juridical, psychological, social, linguistic and educational aspects that are of paramount importance for the man's life. These facts make this story effectively the best one. The reader can never get enough from reading and listening and learning from it.

Key-words:

Surah Youcef, educational aspects, dramatic construction of the story of Youcef, Structure.

مقدمة:

تتعدد أساليب القرآن الكريم في الدعوة إلى الهداية والرشاد؛ فتارةً بالوعد وتارة بالوعيد، وأخرى بوخز الضمير والوجدان، وتارة بالإعجاز بشتى ألوانه، ولكن الذي يجمع كل هذه الأساليب هو توظيفها لأسلوب القص، الذي هو أقرب الوسائل التربوية إلى فطرة الإنسان، وأكثر العوامل النفسية تأثيراً فيه، وذلك لما في هذا الأسلوب من المحاكاة لحالة الإنسان نفسه، فتراه يعيش بكل كيانه في أحداث القصة، وكأنه أحد أفرادها، بل وكأنه هو (بطل القصة) أو (الشاهد) فيها، فيرى من خلالها كل من الصالح والطالح ما في نفسه من أحاسيس، وما في خَلده من أحاديث، وما يجري حوله من أحداث وحوار، كل ذلك من خلال تجاوبه مع القصة.

ولو أننا قمنا بمقارنة سريعة بين أحدث المناهج التعليمية والتربوية اليوم، لوجدنا أن أكثر المناهج نجاحا في عرض الفكرة أو صياغة المادة العلمية بأسلوب قصصي جذاب، هي أكثرها نجاحا وأينعها ثمارا، لأنها تكون حينئذ أحب إلى قلب الطالب، وأقرب إلى فطرته، وأسهل عليه حفظا وفهما، وأدعى لتلقيها بدون أي مشقة أو ملل، لذا كانت القصة ولا تزال مدخلا طبيعيا يدخل منه أصحاب الرسائل والدعوات، إلى الناس وإلى عقولهم وقلوبهم، ليلقوا فيها بما يريدونهم عليه، من آراء ومعتقدات وأعمال. ولكن الإشكال المطروح: ما سر هذه الروعة التي تجذب الآذان جذبا لدى سماعها للقصص القرآني؟ هل وظّف القرآن الكريم الإعجاز بالمفهوم المعاصر في القصص القرآني؟ أين تكمن مظاهر هذا الإعجاز في القصص القرآني؟

هذا ما سنحاول الإجابة عنه خلال هذا البحث، متخذين سورة يوسف أنموذجا.

1/ تعريف المعجزة: لم يرد في القرآن الكريم ولا في السنة المطهرة مصطلح المعجزة، وإنما ظهر هذا المصطلح في وقت متأخر بعض الشيء عندما دوّنت العلوم، ومنها علوم العقائد في أواخر القرن الثاني الهجري وبداية الثالث، لذا نجد القرآن الكريم استعمل كلمة " الآية " في صدد إعطاء الدلائل للرسول عليهم الصلاة والسلام لمحااجة أقوامهم، قال U: [وَأَفْسَمُوا بِاللّٰهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لِّيُؤْمِنَنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللّٰهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ (سورة الأنعام: 109) كما استعمل القرآن لفظة البيّنة في قوله تعالى: [قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَذِهِ

نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ سورة الأعراف: 73، والبيّنة هي الدلالة الواضحة عقلية كانت أو حسية. وتارة يستخدم القرآن الكريم لفظة البرهان قال تعالى: [فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ] (سورة القصص: 32)، والبرهان بيان للحجة، وهو أوكد الأدلة ويقتضي الصدق لا محالة.

أ/ لغة: من أعجز وعجز وهو يقابل القدرة، وفي لسان العرب في مادة عجز؛ العجز: الضعف، وعجز عن الأمر إذا قصر عنه. وفي القرآن الكريم: [الَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ] (سورة الحج : 51)، قال الزجاج: معناه ظانين أنهم يعجزوننا، لأنهم ظنوا أنهم لا يبعثون وأنه لا جنة ولا نار وقيل معناها معاندين، وهو راجع إلى الأول ومعنى الإعجاز الفوت والسبق، يقال أعجزني فلان أي فانتني¹.

ب/ اصطلاحاً: هي أمر خارق للعادة، مقرون بالتحدي، سالم من المعارضة؛ وهي إما حسية وإما عقلية يظهرها الله على يد رسله².

فالمعجزة أمر خارق للسنة التي أودعها الله سبحانه وتعالى في الكون ولا تخضع للأسباب والمسببات ولا يمكن لأحد أن يصل إليها عن طريق الجهد الشخصي والكسب الذاتي وإنما هي هبة من الله عز وجل يختار نوعها وزمانها ليبرهن بها على صدق رسله عليهم الصلاة والسلام.

2/ تعريف القصة:

لغة: القص تتبع الأثر يقال: قصصت الشيء إذا تتبعت أثره شيئاً بعد شيء، قصصت أثره: أي تتبعته، كما تعني: الخبر، فالقصة: الخبر وهو

القصص وقص علي خبره يقصه قصاً وقصصاً: أورده. والقَصصُ بالفتح: الخبر المقصوص³. والقَصص بكسر القاف: جمع القِصة التي تكتب، والقِصة الأمر والحديث، والقصة: الأمر، والخبر، والشأن، والحال.

اصطلاحاً: تعرف بأنها "حكاية تروى نثراً وجهاً من وجوه الحياة في نشاطها وحركتها وتتعقب سلوك الإنسان إلى أدق التفاصيل وتتبعه منذ بدايته إلى النهاية، رابطة بين المقدمات والخواتيم، موغلة في دخيلة النفس حينما تبسط مكوناتها أثناء وقوع الحدث، مستعرضة آثاره الخارجية أحياناً. وهي عمل معقد وبناء مترابط محكم، وهي فن أو عمل فني مع الصنعة والإحكام"⁴. ونستطيع القول إن القصة مجموعة من الأحداث يرويها الكاتب، تتناول حادثة واحدة، أو حوادث عدة تتعلق بشخصيات إنسانية تتباين أساليب عيشها، وتصرفها في الحياة، على غرار ما تتباين حياة الناس على وجه الأرض، كما تمنح الشعور بالمتعة والبهجة، وتتميز بالقدرة على جذب الانتباه والتشويق، وإثارة الخيال، وقد تتضمن غرضاً أخلاقياً، أو لغوياً، أو ترويحياً، وقد تشمل هذه الأغراض كلها أو بعضها.

3/ تعريف القصص القرآني: أخباره عن أحوال الأمم الماضية، والنبوات السابقة، والحوادث الواقعة، وقد اشتمل القرآن على كثير من وقائع الماضي وتاريخ الأمم، وذكر البلاد والديار وتتبع آثار كل قوم؛ وقصص القرآن الكريم أصدق القصص لقوله تعالى: [وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا] [سورة النساء: 87]. وقوله U: [نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ] [سورة يوسف: 03]. وذلك لتمام مطابقتها للواقع. واشتمالها على أعلى درجات الكمال في البلاغة وجلال المعنى.

والقصة القرآنية ليست عملاً فنياً مطلقاً مجرداً عن الأغراض التوجيهية، إنما هي وسيلة من وسائل القرآن الكثيرة إلى تحقيق أغراضه الدينية الربانية، فهي إحدى الوسائل لإبلاغ الدعوة الإسلامية وتثبيتها. والتعبير القرآني مع ذلك يؤلف بين الغرض الديني والغرض الفني، وبهذا امتازت القصة القرآنية بميزات تربوية وفنية، فالقصص القرآني يجعل الجمال الفني أداة مقصودة للتأثير الوجداني، وإثارة الانفعالات وتربية العواطف الربانية.

4/ البنية القصصية لسورة يوسف: إذا ما استقرأنا القصص القرآني، فإن أول ما يشد انتباهنا في سورة يوسف، هو تفرد هذه السورة بذكر القصة الكاملة لهذا النبي الكريم، ذلك أنها أحسن القصص القرآني مصداقاً لقوله تعالى: [نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ] سورة يوسف: 03. خط القصة الدرامي الأساسي متصل ومكتمل البناء، من حيث التمهيد، ثم الحبكة، ثم الانفراج ...

المكان: رغم تعدد الأماكن في القصة بين الشام ومصر، إلا أنّ وقائع القصة وأماكن حدوثها محددة، من بيت الأب إلى الجب إلى بيت العزيز، ومن السجن إلى بلاط الملك !!

الزمان: القرن 16 ق.م؛ من طفولة سيدنا يوسف u، الذي يلقيه إخوته في الجب إلى عزيز مصر الذي يلجأ له أخوته ليطعمهم إلى كهولته.

وفي ذلك التأريخ القرآني لحياة يوسف نرى مشاهد إنسانية ومشاعر متباينة تفاعلت في كل الشخصيات مع اختلاف المنزلة الدينية والدنيوية،

نرى فيها حزن يعقوب u حتى ابيضت عيناه. ونرى فيها حقد أبناء يعقوب على أخيهام إلى درجة التآمر، ثم نرى فيهم الندم والحسرة والتوبة وشبح جريمتهم لا يفارق قلوبهم، ونشهد هيام امرأة العزيز بيوسف وتخييرها له أمام النسوة بين أن يستجيب لرغبتها أو يدخل السجن، ثم نراها وهي تتوب وتعتزف بجريمتها أمام نفس الملاء.

الملاحظة المهمة في هذه القصة أنها لم تركز على معالجة الأمور العقيدية، إنما جاءت لتعالج أموراً سلوكية يمكن أن تحدث في أي أسرة. ولأن الهدف الأساسي من سورة يوسف هو العظة والعبرة، إلا أنها حوت العديد من قواعد العلوم: كالطب، وعلم النفس، والزراعة، والإدارة، والاجتماع، والقانون، والتشريع، والعقيدة، وغيرها... أما عن النهاية الدرامية في القصة فبعض الشخصيات ذكرت في نهاية مطافها (كيعقوب وإخوة يوسف)، وبعض النهايات تركت مفتوحة (كيوسف وامرأة العزيز). إذن هو تاريخ إنساني مليء بالمشاعر والمواقف الإنسانية يجعل القارئ يحس بأنه يرى نفسه وغيره فيه، سواء كان القارئ عابداً ناسكاً، أو كان سلطاناً حاكماً أو كانت امرأة عاشقة أو والداً مكلوماً على ابنه، أو مسجوناً مظلوماً أو أخاً حاسداً لأخيه أو متآمراً عليه، وإن لم يجد القارئ نفسه في واحد من هؤلاء فإنه بالتأكيد يجد بعض معارفه تنطبق عليه إحدى تلك الحالات.. وبذلك يتحول التاريخ الذي يتحدث عن الماضي إلى شخصيات إنسانية حية نعيشها ونتعامل معها ونتنفس حولنا.

الشخصيات: شخصياتها المحورية والثانوية معدودة (يعقوب، يوسف، الإخوة، عزيز مصر وامراته، صاحب السجن، الملك)؛ ومع التدفق

القصصي الرائع، وجدنا هذه النماذج الإنسانية تأتي في دورها المحدد في القصة بدون زيادة أو نقصان، والملك - مع أنه الملك - لم يستغرق في القصة إلا بقدر دوره الحقيقي فيها، فقد ظهر في ثلاثة مواقف، حين رأى الرؤيا وعجز عن تفسيرها الملاً حوله، وحين حقق بنفسه في الاتهام الظالم ليوسف، ثم المشهد الأخير له حين تكلم مع يوسف وجعله عزيز مصر. أما امرأة العزيز فقد احتلت أربعة مشاهد، حين راودته وضبطها زوجها، وحين جاء الشاهد ليحقق في الموضوع وأثبت كذبها، وحين عقدت مؤتمرا نسائيا وجعلت النسوة يندهشن لجمال يوسف وتهدهه أمامهن ليستجيب لرغبتها والمشهد الأخير حين اعترفت أمام الملك بذنبها وتوبتها.

بطل القصة: بطل القصة الحقيقي يصعب تحديده، فالسورة تحمل اسم سيدنا يوسف u، وبالتالي يتبادر لأذهاننا أنه بطل القصة، ولكن إذا ما شَرَحنا القصة فإننا نجد يعقوب هو الذي كان يدير أحداث القصة؛ ففي البداية قال: [قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ] سورة يوسف: 05، خوفا على ابنه من إخوته؛ و كان يعلم تماما أن الذنب لم يأكل يوسف لأنه قبل ذلك قال له: [يَجْتَنِبُكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ] سورة يوسف: 06 ، فهل يُعقل أن يأكله الذنب في اليوم التالي؟ لكنه كتم السر وبدأ يدير الأحداث ولم يفقد الأمل، ولا أدلّ على سبق علم يعقوب u بالأحداث قوله: [قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ] سورة يوسف : 96 ..

شخصية يوسف: تتميز شخصية يوسف u بميزات منفردة من أبرزها الثبات، فعندما كان في بداية شبابه كان من المحسنين [وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ

آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ [سورة يوسف: 22؛ وحين دخل السجن لم يؤثر السجن على شخصيته مطلقاً، فصاحبي السجن يقولان: [نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ] سورة يوسف: 36؛ عندما أصبح عزيز مصر وجاء إخوته فقالوا: [قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ] سورة يوسف: 78، إذا يوسف طوال حياته كان من المحسنين، كما كان له شخصية جمالية فريدة قال ٢ : (لقد أوتي شطر الحسن) ⁵. كما تميز بالحصافة u فهو نموذج الرجل الواعي الحصيف، فها هو ذا يلقي العنف من مراودة امرأة العزيز له فيأبى وينتصر في النهاية على الإغراء، ويملك نفسه في الموضع الذي تتهاوى فيه الإرادة، فإذا رأى أنس الملك به وارتياحه لتأويله، وسمع منه قوله: [إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ] سورة يوسف: 54 ، لم يدع الفرصة تذهب بل قال: [قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ]سورة يوسف: 55، فيجيب إلى طلبه في أنسب الظروف. وقد تجلت العبقرية الفذة في شخصية يوسف u بعد أن أحسن التصرف في سني الخصب والجذب التي أصابت البلاد، فقد أشرف على المالية والتموين خمس عشرة سنة، لا على تموين مصر وحدها، بل على تموين البلاد القريبة المجاورة، التي أجدبت كذلك، ثم إذا جاء إخوته فعرفهم وهم له منكرون، جعل حصوله منهم على أخيه ثمناً لحصولهم على القوت، فإذا جاءوه: [جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيُّهَا الْعَبْرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ] سورة يوسف: 70 ، فإذا أنكروا السرقة وطلبوا تفتيشهم وأخذ من تظهر الكأس في أمتعته ثمناً للكأس تبذت الحصافة: [فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرِجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ] سورة يوسف: 22، وتركهم يعودون بدونه، ثم يرتدون بأوعيتهم

إليه فيكشف لهم هذه المرة عن نفسه بعد أن يلقي عليهم هذا الدرس وبعد أن يحملهم تلك المشقة، وهذه كلها تصرفات الرجل الواعي الحصيف.

5/ الجوانب التربوية: توضح السورة جوانب تربوية مهمة، فقوله: [إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ] سورة يوسف: 04، نلاحظ هذا الأدب الرفيع بين الولد وأبيه، فاستخدام لفظة يا أبت تعطي التودد والتواضع، وتغرس معاني الرأفة والرحمة، والأصل أن يستعمل كأسلوب تربوي طول حياة الإنسان وليس في مرحلة الصغر، فيوسف u لم يتوقف عن استخدام اللفظة رغم تقدمه في السن: [يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ] سورة يوسف: 100

توصل إخوة يوسف بالغيرة إلى أحدث أبحاث التربية في تربية الطفل وهي: أمانة المعلم على الطفل [قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ (11)] ؛ كذلك الرفق بالطفل عند النصيح له وتوفير المأكل والملعب في هذه السن الصغيرة. [أَرْسَلَهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَع وَيَلْعَبُ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ] . كذلك نتعلم من سورة يوسف كتمان السر: [قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ] سورة يوسف : 05 ، فيعقوب u أعطى المثل الأعلى في كتمان السر، لماذا لأنه كان يتمتع بالصبر الجميل؛ تعلمنا السورة أن كل رب أسرة يجب أن يصبر على أسرته صبرا جميلا، والجميل لا تعني الظريف، بل لها معنى يختلف فهناك الصفح الجميل (الصفح من دون عتب)، والسراح الجميل (السراح من دون أذى)، أما الصبر الجميل هو الصبر من دون شكوى، فكلما أذى إخوة يوسف

يعقوب عليهما السلام، إلّا وصبر الصبر الجميل ويردّفها بقوله: [قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ] سورة يوسف: 86.

لماذا قال لهم في المرة الثانية ادخلوا من أبواب متفرقة؟ لماذا لم يقل هذا الكلام في المرة الأولى؟ لو تعلق بالحسد فقط لقال ذلك الكلام في المرة الأولى والثانية. لكننا لو تتبعنا القصة لوجدنا أن يوسف أرسل رسالة مشفرة لأبيه تكمن هذه الرسالة في قوله: [وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ قَالَ أَتُنُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ] سورة يوسف: 59 ويعقوب u أنجب من زوجته الثانية (راحيل) يوسف وبنيامين. فلما جاء إخوة يوسف إلى يعقوب وقالوا إن الملك يطلب أخانا من أبينا لم يندعش يعقوب، ولم يُظهر لهم هذا الاندهاش والتحيّر، لأن المنطق يقول: كيف يفترض في هذا الملك الذي يعيش في دولة أخرى ولم يعرف هذه الأسرة مطلقاً أن لهؤلاء الإخوة أخ من أبيهم فقط؛ فأدرك يعقوب u أن الإخوة قابلوا يوسف لذلك طلب إليهم أن يدخلوا في المرة الثانية من أبواب متفرقة لماذا؟ لكي يصلوا إلى يوسف فرادى، فيجد يوسف فرصة لكي يكلم أخاه بنيامين ولو كلمات. وتمّ هذا الأمر فنلاحظ مباشرة بعد دخول بنيامين على يوسف فقال له: [وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ أَوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ] سورة يوسف: 69 وانتهى الموضوع.

6/ جوانب تاريخية: قصة يوسف تعطي توثيقاً تاريخياً مذهلاً خاصاً

بالتاريخ المصري، ذلك أنه قد يتبادر إلى الذهن تساؤل عن عدم ذكر فرعون في هذه القصة على الرغم من أنها وقعت في بلاد مصر وفي أزمنة بعيدة، حكم خلالها الفراعنة مصر لقرون طويلة⁶، وللإجابة عن هذا

التساؤل نذكر أنه بين عامي 1615 ق.م إلى 1560 ق.م دخل العمالة الهكسوس وحكموا مصر؛ الحاكم الهكسوسي كان يدعى ملك وليس فرعون، حتى قام الملك الفرعوني إخمس الأول 1560 ق.م وطرد الهكسوس من مصر وأعاد الحكم الفرعوني فعاد القرآن يذكر فرعون مع موسى وغيره.⁷ وفي هذا قال الشيخ الطاهر بن عاشور: «والتعريف في (الملك) للعهد، أي ملك مصر. وسماه القرآن هنا ملكا ولم يسمه فرعون، لأن هذا الملك لم يكن من الفراعنة ملوك مصر القبط، وإنما كان من ملكا لمصر أيام حكمها (الهكسوس)، وهم العمالة، وهم من الكنعانيين، أو من العرب، ويعبر عنهم مؤرخو الإغريق بملوك الرعاة، أي البدو. وقد ملكوا بمصر من عام 1900 إلى عام 1525 قبل ميلاد المسيح⁸ u «

لم يمّت يوسف u موتا طبيعيا لأنه هلك: [وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ] سورة غافر: 34

7/ جوانب طبية: تبين لنا السورة أن هناك علاقة قويّة بين الانفعالات النفسية وما تخلفه من أمراض عضوية على جسم الإنسان: [وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزَنِ فَهُوَ كَظِيمٌ] سورة يوسف: 84. سلوكيات الكفيف الاعتماد على حاسة اللمس: [يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ] سورة يوسف: 87؛ كذلك رهافة حواسه الأخرى كاللمس والشم: [وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ] سورة يوسف: 94.

دلالة الطب الشرعي في التاريخ، ممثلة في فحص ملابس المجني عليه: [إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (سورة يوسف: 26) وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ (27)] سورة يوسف: 27 . 28

8/ جوانب لغوية: الإشارة القرآنية المعجزة إلى ذكر القصة في كتاب الله بالعربية (لكون أبطالها لا يتكلمون العربية)، لتكون وقائعها، والعبر المستخلصة منها، في غاية الوضوح: [إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ] سورة يوسف: 02. ماذا تعني ألر؟ تسمى هذه الأحرف النورانية مجموعة في قولهم: «نص حكيم قاطع له سرّ». [وَأِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْغَافِلِينَ] سورة يوسف: 03. ، أي أن هذه القصة لم تخطر ببالك ولم تفرح سمعك قط⁹، وحاش لرسولنا الكريم ﷺ أن يكون من الغافلين عن ذكر الله؛ بل من الغافلين عن معرفة قصة سيدنا يوسف.

يوسف u رأى إخوته ولم ير النجوم لأن الصيغة اللغوية للكلمة رأيتهم الميم هي ميم العاقل، لم يقل رأيتها لي ساجدة أي فعلا رأى إخوته في المنام، وربما يعقوب u قال لابنه: قل لإخوتك رأيت الشمس والقمر.

يوسف u ألقوه في غيابة الجب، والجب يجمع الماء شتاء ويجف صيفا، وكلمة جب بمعنى جمع عكسها بج، بجت الأرض الماء أي دفعت الأرض الماء نحو الأعلى، أيضا الشرفة من الشرف والعلو، عكسها فرش؛ نهر: مرر الماء، عكسها رهن؛ درّ بمعنى أعطى ردّ "هذه بضاعتنا ردت إلينا"، أي أن الحادثة وقعت في الصيف. ولو ألقوه في البئر لهلك.

لماذا نجد: [وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ] ، في اللغة العربية نقول قالت نسوة أي قال عدد قليل من نسوة المدينة (شائعة صغيرة) لذلك امرأة العزيز احتوت الموضوع بإرسالها لهن: [وَأَعْتَدْتُ لَهُنَّ مَتَكًّا وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ] لو وجدنا قالت نسوة لكانت شائعة كبرى وفضيحة بالمدينة وكذلك قوله تعالى: [وكانت من القانتين] (مذكر) لأن القانتين من بني البشر هم قلة قليلة.

لماذا أكدت على ليسجنن نونين ونون التوكيد الثقيلة بينما في وليكونا بالتثنية فقط من الصاغرين لم تقل وليكونن لأنه فعلا سجن ولو قالت ليكونن ... لأمضى طول حياته في السجن فيوسف لم يكن من الصاغرين بل أصبح عزيز مصر.

هنالك فرق بين همّ وراود، هي راودته في بيتها، بينما هو لم يراودها لأن إبليس لم يقربه لا من قريب ولا من بعيد، لماذا؟ لأن يوسف يحمل صفة عباد الله المخلصين: [كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ] سور يوسف: 24 وإبليس اعترف قبل بداية الخليقة بهذا في قوله تعالى: [قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (82) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلَصِينَ] سورة ص: 82 . 83.

كذلك من الأمور التي تسترعي الانتباه، نجد أن يوسف لم يهّم بها من أجل الفاحشة لماذا؟: [وَرَأَوْنَهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ] [سورة يوسف: 23 فهذا الجواب جرحها في كبريائها، فالمرأة العزيزة القادرة وسيدته يجيبها عبدها الضعيف الذي اشترته بالدرهم المعدودة بقوله معاذ

الله؛ فهمّت به بالضرب فهمّ بها، فأصبح هناك أصوات داخل الحجرة وجلبة، لذلك جاء سيدها لدى الباب وبدأ بدفع الباب ولو كان يوسف راودها لانتهى الأمر بصمت وهدوء، ولما سمع أحد بخبرهما. برهان ربّه لأن يوسف كان من المحسنين وقد عرفه النبي صلى الله عليه وسلم بقوله: (أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك)¹⁰.

التناسق بين العبارة والموضوع الذي يراد تقريره: إن الذي يتمعن النظر في النظم القرآني يلاحظ التناسق الكامل والتآلف التام بين العبارة القرآنية والمعنى الذي يراد بيانه وتوضيحه؛ فالألفاظ في النظم يلائم بعضها بعضا وهي كلها متوجهة إلى الغرض المنشود بحيث إذا كان المعنى غريبا كانت ألفاظه غريبة وإذا كان المعنى معروفا مستحدثا كانت الألفاظ تناسبها. يقول بديع الزمان النورسي: فالكلام إذا حذا حذو الواقع وطابق نظمه نظامه حاز الجزالة بحذافيرها؛ ويكون ذا قوة وقدرة إذا كان أجزاءه مصداقا لما قيل:

عبارتنا شتى وحسنك واحد وكل إلى ذاك الجمال يشير.

وفي الأمثلة التالية نلقي أضواء على هذا الجانب: لما أراد الله سبحانه وتعالى أن يصف حالة يعقوب u وهو يتأسف على يوسف u، وكانت هذه الحالة غريبة في نظر أبنائه، عبر عن هذه الحالة بكلمات غريبة كلها، فقال سبحانه وتعالى: [قَالُوا تَاللّٰهِ تَقْتُلُ تَذْكُرُ يُوْسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ] سورة يوسف: 85.، حيث أتى بأغرب ألفاظ القسم بالنسبة إلى أخواتها؛ فإن التاء أقل استعمالا وأبعد عن فهم العامة، بينما الباء والواو أعرف عند الكافة، وهي أكثر دورانا على الألسنة وأكثر

استعمالاً في الكلام. ثم أتى الله سبحانه وتعالى بأغرب صيغ الأفعال التي ترفع الأسماء وتتصب الأخبار بالنسبة إلى أخواتها فإن (كان) وما قاربها أعرف عند الكافة من تفتاً. وهم لـ (كان) وما قاربها أكثر استعمالاً منها وكذلك لفظ (حرضاً)¹¹ أغرب من جميع أخواتها من ألفاظ الهلاك، فاقترضى حسن الوضع في النظم أن تجاور كل لفظة بلفظة من جنسها في الغرابة أو الاستعمال توخياً لحسن الجوار ورغبة في انتلاف المعاني بالألفاظ ولتتعدل الألفاظ في الوضع وتناسب في النظم.

اهتمام النظم القرآني بالجملة القرآنية واختيار المكان المناسب فيها للكلمة المعبرة: تتناسق الكلمات القرآنية في الجملة الواحدة وبين الحروف في الكلمة الواحدة؛ فنظرة إلى تلك الحروف تبرز تناسبها لبعضها تناسبا طبيعيا في الهمس والجر والشدة واللين والتفخيم والترقيق مما يشكل أنغاما متناسقة متناسبة. وهذه الخاصية تعود بلا شك إلى طريقة اختيارها وسبكها وتناسب مخرجها؛ كما أن وضع الكلمة في الآية واختيار موقعها والتناميها مع جاراتها له الأثر الكبير في إعطاء هذا الجرس الخاص والإيقاع المؤثر في نفس السامع.

وفي المثال التالي من سورة يوسف نرى اهتمام النظم القرآني في اختيار الكلمة المناسبة ذات الجرس المعين لأداء وظيفتها في الإيقاع، كما أنها تؤدي في نفس الوقت دورها في تصوير المعنى وتشخيصه وإيضاحه على أتم صورة. فحينما يصف القرآن الكريم دعوة امرأة العزيز للنسوة (اللاتي تحدثن منتقدات عن مراودتها يوسف عن نفسه) إلى جلسة لطيفة في بيتها لتطلعهن فيها على يوسف وجماله فيعذرنها فيما أقدمت عليه. نجدها قدمت

لهن في ذلك المجلس طعاما ولا شك. ولقد أوضح القرآن هذا، ولكنه لم يعبر عن ذلك الطعام فهذه الكلمة إنما تصور شهوة الجوع وتنتقل بالفكر إلى المطبخ بكل ما فيه من ألوان الطعام وروائح وأسبابه، ولكن بماذا يعبر إذن؟ وهل تستطيع اللغة أن توظف الكلمة التي تؤدي معنى الطعام ولا تمس الصورة بأي تعكير أو تشويه؟ لقد أبدع القرآن لذلك تعبيرا عجيبا رائعا حيث قال: [فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ] (سورة يوسف : 31) (متكأ)¹² ، كلمة تصور من الطعام ذلك النوع الذي إنما يقدم تفكها وتبسيطا وتجيلا للمجلس وتوفيرا لأسباب المتعة فيه، حتى إن الشأن فيه أن يكون الإقبال عليه في حالة من الراحة والالتكاء ولعلها أدركت بغريزتها النسائية ما سيؤول إليه أمرهن فاخترت هذا المتكأ مما يحتاج فيه إلى سكين¹³.

وفي قصة يوسف u استعمل التعبير القرآني كلمة [فَأَكَلَهُ الذَّنْبُ] ولم يستعمل افترسه الذئب، علما أن الشائع في الاستعمال إطلاق كلمة الافتراس على مثل هذا النوع، وذلك للطيفة دقيقة وهي أن الافتراس من فعل السبع معناه القتل فحسب، وأصل الفرس: دق العنق، والقوم إنما ادّعوا على الذئب أنه أكله أكلا، وأتى على جميع أجزائه وأعضائه فلم يترك مفصلا ولا عظما. وذلك أنهم خافوا مطالبة أبيهم إياهم بأثر باق منه يشهد بصحة ما ذكروه فادّعوا فيه الأكل ليزيلوا عن أنفسهم المطالبة، والفرس لا يعطي تمام هذا المعنى فلم يصلح على هذا أن يعبر عنه إلا بأكل¹⁴.

الخاتمة:

إنَّ المتدبّر لقصة يوسف¹⁵ u واجدٌ في كل آية، وفي كل كلمة والتفاتة قرآنية، من الأهداف والعبر والإشارات واللطائف والعلوم، ما تعجز عنه الألسن ولا تبلغ مداه الأفهام، وصدق الله العظيم إذ يقول مبيناً تلك الأهداف العظيمة من القصص: [لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (سورة يوسف: 111)] ، ولنتأمل كيف جاء لفظ (عبرة) منكرًا ليفيد الشمول والعموم ؛ ففي قصصهم عبرة عن كل شيء، وفي كل شيء من قصصهم عبرة، ولكن لا يستخرج تلك الدرر والجواهر، إلا من آتاه الله عقلاً نيراً وقلباً مبصراً، ولذلك جعل العبرة في الآية السابقة قاصرة على (أولي الأبواب).

الهوامش:

-
- 1- لسان العرب، ابن منظور الإفريقي، تح: عبد الله علي الكبير، محمد أحمد حسب الله، هاشم محمد الشاذلي، سيد رمضان أحمد، دار المعارف، 1981، مادة (عجز) 2817:
 - 2- الإتيان في علوم القرآن، الحافظ جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، مكتبة مصر، جمع وتصحيح ومراجعة دار مصر للطباعة سعيد جودة السحار وشركاه: 3/ 4.
 - 3- لسان العرب، مادة (قصص): 3650
 - 4- الأدب العربي الحديث، سالم المعوش، دار النهضة العربية، لبنان، ط2، 2011: 324
 - 5- تفسير القرآن العظيم، الإمام أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي، دار الرشيد، ط1، ج2: 476

- الشرق الأدنى القديم: مصر والعراق، د. صالح عبد العزيز، مكتبة الأنجلو المصرية، 2012: 278

- تاريخ مصر القديمة، نيقولا جريمال، تر: ماهر جويجاني، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة،⁷

⁸- تفسير التحرير والتنوير، تأليف الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، دار التونسية للنشر تونس، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر، ج10: 280

⁹- أنوار التنزيل وأسرار التأويل المعروف بتفسير البضاوي، ناصر الدين أبي الخير بن عمر بن محمد الشيرازي الشافعي البضاوي، إعداد وتقديم محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي ومؤسسة التاريخ العربي، بيروت، ط1، ج3: 154.

¹⁰- صحيح البخاري، الإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، منشورات محمد علي ببيضون، دار الكتب العلمية، لبنان، ط2، 2002: 25

¹¹- الحرض: ما لا يعتد به ولا خير فيه، لذلك يقال لما أشرف على الهلاك (حرض)

¹²- (وأعتدت)، "أفعلت" من العتاد، وهو العدة، (2) ومعناه: أعدت له = "متكأ"، يعني: مجلساً للطعام، وما يتكنن عليه من النمارق والوسائد. (تفسير الطبري جامع البيان عن تأويل بي القرآن، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، تح: محمود محمد شاكر، مكتبة ابن تيمية، ج16: 69)

¹³- مباحث في إعجاز القرآن: 147

¹⁴- مباحث في إعجاز القرآن الكريم: 150

¹⁵- لم يذكر سيدنا يوسف في القرآن إلا مرتين خارج سورة يوسف، مرة في سورة الأنعام قال تعالى: [وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ] (84) [50] ؛ ومرة في سورة غافر قال تعالى: [وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا]